مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

ازدهار حركة نشر الكتب والمكتبات في الأندلس

-١- قرطبة

الأستاذ صفاح محمد رباب
جامعة الفاتح - الجماهيرية العظمى

قرطبة درة مدن الأندلس وأشهرها وأكثرها علماً وثقافة كانت كما يصفها التلمساني (منتهى الغاية، ومركز الراية، وأم القرى، وقرارة أُولي الفضل والتقى، ووطن أُولي العلم والنُهى، وقلب الإقليم، وينبوع متفجر العلوم، وقبة الإسلام، . . . . بها أنشئت التأليفات الرائقة، وصنفت التصنيفات الفائقة، والسبب في تبريز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلّا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب)[1] أما من ناحية العناية بالكتب والاهتمام بها وبذل المال الكثير في شرائها والحصول عليها فيقول «وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة، حتى ان الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها ليس إلّا لأن يقال: فلان

(1) أحمد بن محمد المقري التلمساني. نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب. بيروت: دار صادر، 1968 م. مج 1، ص 461.

عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به»[2] ومن القصص التي تروى في كتب التاريخ الأندلسي والتي تدل على الاهتمام الكبير بالكتب وتجارتها في مدينة قرطبة، تلك المناظرة التي جرت بين ابن رشد الفيلسوف المعروف والرئيس أبي بكر بن زهر الطبيب الأندلسي الشهير وهي المناظرة التي جرت بين يدي منصور بن عبد المؤمن «فقال ابن رشد لابن زهر في كلامه: ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى اشبيلية»[3] وهذه القصة وغيرها من القصص المشابهة تبين اهتمام أهل قرطبة بالكتب قراءة وكتابة وتجارة وهي دليل واضح على اهتمام القرطبيين بمصدر العلم والثقافة في ذلك الوقت وهو الكتاب. ومن الدلائل على عظمة قرطبة العلمية والأدبية أن أحد المستشرقين في العصر الحديث تمنى «لو أن العرب المسلمين استولوا على فرنسا لتغدو باريس مثل قرطبة في إسبانيا، مركزاً للحضارة والعلم، حيث كان رجل الشارع فيها يكتب ويقرأ، ويقرض الشعر أحياناً، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبة لا يعرفون كتابة أسمائهم، ويبصمون بأختمهم»[4].

وقد اشتهرت قرطبة بكثرة عدد حوانيت الوراقة التي تقوم بنسخ الكتب وتجليدها ثم بيعها ـ أي ما تقوم به دور النشر في الوقت الحاضر ـ. وكان الوراقون يدفعون رواتب ثابتة للناسخين المحترفين الذين يعملون في خدمتهم، هذا بالاضافة إلى أن عدداً من أصحاب المكتبات الخاصة كانوا يستخدمون كثيراً من الناسخين المختصين في مهنة نسخ الكتب، وقد قدّر أن ما كان ينتج في قرطبة وحدها من الكتب ما بين ستين وثمانين ألف كتاب سنوياً[5].

---

(2) نفس المصدر، ص 462 -463.

(3) نفس المصدر، ص 463.

(4) شوقي أبو خليل. الحضارة العربية الإسلامية طرابلس: كلية الدعوة الإسلامية 1987، ص 258.

(5) خوليان ريبيرا. التربية الإسلامية في الأندلس: أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية. ترجمة الطاهر أحمد مكي. القاهرة: دار المعارف، (د. ت)، ص 212.

وعرفت قرطبة، مثل غيرها من مدن الأندلس الأخرى، العديد من المكتبات العامة والخاصة وكانت تلك المكتبات من الضخامة بحيث احتوت على مئات الألوف من المجلدات في مختلف فروع المعرفة الإنسانية التي كانت معروفة في ذلك الوقت كالفلسفة والأدب والرياضيات والمنطق والفلك والطب والصيدلة... الخ. ويقول المستشرق الأسباني «خوليان ريبيرا» أن مدينة قرطبة الأندلسية «عرفت من الكتب والمكتبات وهواة الكتب أكثر مما لدينا الآن، أكثر مثلاً مما في سرقسطة أو بلنسية رغم أنهما من كبريات مدن إسبانيا المعاصرة، ويفوقان الآن عدداً وحجماً ما كانتا عليه أيام الدولة الإسلامية وفي عصر ازدهار أدبي، وهو آخر القرن التاسع عشر، ويجيء بعد أربعة قرون طوال من اختراع الطباعة»[6] وبسبب ما كانت عليه قرطبة من ازدهار في العلوم والآداب وغيرها قدم إليها طلاب العلم من أوروبا للدراسة في معاهدها ومدارسها وخزائن كتبها. ومن كنوز وذخائر مكتباتها ومكتبات مدن الأندلس الأخرى ترجمت إلى اللغة اللاتينية العديد من المؤلفات في مواضيع الأدوية والطب والفلسفة والفلك والجراحة وغيرها من الكتب الأخرى. وعن طريقها عرفت أوروبا لأول مرة كتب اليونان القديمة والكتب الفارسية والهندية والسريانية التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية عن العربية بسبب حفظ المكتبات الإسلامية لهذا التراث الإنساني الخالد.

وقد وصل الازدهار العلمي والثقافي والأدبي في قرطبة وبقية مدن الأندلس ذروته في فترة خلافة عبد الرحمن الناصر ابنه الحكم المستنصر. وقد تولى عبد الرحمن الناصر الخلافة سنة 300 هجرية حتى وفاته عام 350 للهجرة، أي أن فترة حكمه استمرت خمسين سنة.

وكان عبد الرحمن الناصر من المشهورين بحب الكتب، وبلغت شهرته معظم أرجاء العالم الإسلامي وأوروبا حتى وصلت بيزنطة. وعندما أراد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع «أن يستميل الخليفة الأندلسي لحاجة في

---

(6) نفس المصدر، 213.

نفسه. فكر أن يهدي عبد الرحمن الناصر أحب شيء إلى قلبه، كتاباً جديداً لم يعرفه من قبل، فأرسل إليه كتاب ديوسقوريدس في الطب»[7]. وكان هذا الكتاب باللغة الاغريقية، وكان في مجلد رائع كتب بماء الذهب، وزين برسوم جميلة للأشجار التي ورد ذكرها في الكتاب. وكان اسم الكتاب (مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب).

وقد اهتم عبد الرحمن الناصر بالعلم والأدب اهتماماً عظيماً، وقصده العلماء من كل مكان وأصبح قصره قبلة الأدباء ومثابتهم. وقد وفد إلى الأندلس في عهده العديد من الأدباء والعلماء المسلمين من الشرق الإسلامي. وكان من بين الذين قدموا إليه أبو علي القالي الذي أسند إليه عبد الرحمن الناصر أمر تعليم وتأديب ابنه الحكم. وأسس عبد الرحمن الناصر في قصره مكتبته الكبرى بالأندلس. والتي كانت من أعظم خزائن الكتب وأشهرها، «ولم تزل إلى انقراض دولتهم (الأمويين) واستيلاء ملوك الطوائف على الأندلس فذهبت كتبها كل مذهب»[8].

أما الخليفة الحكم الثاني (المستنصر) الذي تولى الخلافة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر سنة 350 هجرية فكان زادُهُ كبيراً من الثقافة، عالماً بأمور الدين، وله معرفة كبيرة بالتاريخ ملماً بمعرفة الأنساب، وكان «محباً للعلماء يستحضرهم من البلدان النائية فيستفيد منهم ويحسن إليهم، جماعاً للكتب»[9]. وقد جمع الحكم من الكتب ما لم يجمعه أحد من الملوك من قبله، فكان يبعث في شرائها من الأقطار الأخرى «رجالاً من التُّجَّار ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى يجلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه»[10]. ومن الروايات التي ترويها كتب التاريخ عن عشقه وحبه الكبير للكتب أنه لما سمع بأن الأصفهاني أخذ في تأليف كتاب

---

(7) نفس المصدر، ص 190.

(8) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي. صبح الأعشى في صناعة الانشا. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963، جـ1، ص 467.

(9) خير الدين الزركلي. الاعلام. ط 5 دار العلم للملايين، 1980م، جـ2، ص 267.

(10)أحمد بن محمد المقري التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ1، ص 385.

«الأغاني» أرسل إليه ألف دينار من الذهب العين لأجل الحصول على نسخة منه، فبعث إليه الأصفهاني بنسخة من الكتاب قبل أن يظهر في العراق. وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في كتابه الذي شرح فيه مختصر ابن عبد الحكم، وغيره من مثل هذه الأمثلة كثير[11].

واهتم الحكم بالكتب والمكتبات اهتماماً شديداً وازدهرت الثقافة في عهده ازدهاراً عظيماً وجمعت الأندلس خيرة علماء المسلمين وأدبائهم وفدوا من أقطار عديدة من بلاد الإسلام الواسعة وقد جمع الحكم المستنصر بقصره «الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده»[12].

ويصف المستشرق رينهارت دوزي الخليفة الحكم الثاني (المستنصر) بقوله «لم يسبق أن تولى حكم إسبانيا حاكم عالم بهذه الدرجة، ورغم أن جميع أسلافه كانوا رجالاً مثقفين، وأحبوا أن يغنوا مكتباتهم، فإن أحداً منهم لم يبحث بشغف ونهم عن الكتب النادرة والثمينة كما فعل الحكم»[13] وما كان حب الحكم الثاني للكتب حباً مظهرياً، يقوم بجمعها وتكديسها في مكتبته من أجل الترف والمباهاة، وإنما كان يقرأها ويقوم بالتعليق عليها، وكانت تعليقاته موضع تقدير العلماء، والاستفادة منها فيما بعد، وقد أشاع الحكم في العلماء والأدباء الثقة التي يستحقها عالم حجة، وأتاحت له الظروف أن يبلغ حداً من العلم والمعرفة الواسعة والثقافة العريضة التي قد لا يصل إليها أحد من الذين لم تتوافر لهم الوسائل التي توفرت له[14].

ولم تزل مكتبة الأمويين في قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصارها البربر وقد قام بإخراج الكتب منها وبيعها الحاجب واضح وهو من موالي المنصور بن أبي

---

(11) نفس المصدر.

(12) نفس المصدر، ص 386.

(13) رينهارت دوزي نقلاً عن: محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 1970م، ص 123.

(14) خوليان ريبيرا، ص 198.

عامر، ونهب ما تبقى منها أثناء دخول البربر قرطبة واقتحامها بالقوة. ويروى أن هذه المكتبة ـ مكتبة بني أمية في الأندلس ـ قد حوت ما يزيد على أربعمائة ألف مجلد، وأن عدد الفهارس التي فيها قد بلغ أربعة وأربعين فهرساً، وكل فهرس من هذه الفهارس يحتوي على عشرين ورقة ذكر فيها أسماء الدواوين (الكتب) فقط[15]. وقد شاع بين الأندلسيين وأهل قرطبة من رعايا الحكم أن أقصر الطرق للوصول إلى الخليفة وأفضل الوسائل لإقناعه واستمالته للحصول على ما يريدون، أو الفوز بالمناصب هو تقديم الكتب التي ليست في مكتبته له، ومن هنا أخذ عدد من العلماء يخصونه بمؤلفاتهم ويهدونه كتبهم الجديدة، أو يقدمون له كتباً نادرة. وقد وجد هذا الاتجاه حتى بين المسيحيين من أهل قرطبة، فقد ألّف أحد الأساقفة وهو ربيع بن زيد، واسمه اللاتيني رثموندو «Recemundo» كتاب «الأنواء» المشهور باسم «تقويم قرطبة» وأهداه إلى الحكم، وهو كتاب طريف ومثير[16]. وبهذه الطريقة تقرّب عدد كبير من العلماء إلى قلب الحكم وكانت لهم عنده حظوة كبيرة وكان من بين أولئك المتقربين ابن مفرج القرطبي، ومحمد بن حارث الخشني، ومحمد بن يوسف الوراق الذي كتب للحكم كتاباً ضخماً في مسالك وممالك أفريقيا وكتباً أخرى في أخبار ملوكها وحروبها، وعدداً آخراً من الكتب في أخبار بعض المدن والأمصار الأخرى[17].

ولم يقتصر الاهتمام بالكتب والمكتبات في قرطبة وغيرها من مدن الأندلس على الحكام والأمراء. بل ان غالبية المجتمع القرطبي والأندلسي عموماً كانت شغوفة بالقراءة ومحبة لجمع الكتب كل بما تسمح به ظروفه المالية بالطبع. ومن الذين عشقوا الكتب وأحبوها حباً جماً قاضي قضاة قرطبة القاضي أبو المطرف وهو عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطين بن اصبغ بن فطيس بن سليمان، وأبو المطرف هي كنيته التي اشتهر بها. وقد جمع أبو المطرف من الكتب في جميع فروع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس. وكان من كبار المحدثين

---

(15) أحمد بن محمد المقري التلمساني، ص 685.

(16) خوليان ريبيرا، ص 195.

(17) أحمد بن محمد المقري، جـ2، ص 163.

والعلماء المفسرين، حافظاً للحديث وعلله، ملماً بأسماء رجاله ونقلته، متقدماً في معرفة الآثار والسير والأخبار، وله مشاركة في سائر العلوم التي كانت في عصره، وله عناية كاملة بتقييد السنن والأحاديث المشهورة والحكايات المسندة، وكان خطه حسناً وضبطه جيداً. ويروى أنه كان يستخدم «ستة وراقين ينسخون له دائماً، وكان قد رتب لهم على ذلك راتباً معلوماً، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه، فإن قدر على ابتياعه وإلّا انتسخه ورده عليه»[18] ويروي ابن بشكوال عن حفيد أبي المطرف أنه سمع عمه وغيره من أقاربه يحكون أن أهل مدينة قرطبة قد أمضوا عاماً كاملاً في عملية بيع كتب جده أي المطرف وأن حصيلة بيع الكتب هذه كانت أربعين ألف دينار قاسمية، وإن دلّت هذه الرواية أو القصة عن شيء فإنما تدل على الأعداد الضخمة من الكتب التي كانت في مكتبة أبي المطرف الخاصة[19] ولقد ولد أبو المطرف سنة 348 هجرية وتوفي عام 402 هجرية. وعدت مكتبة أبو المطرف من أعظم مكتبات قرطبة بعد مكتبة الخليفة، ومن بين الكتب التي كانت بها «كتاب القصص والأسباب التي من أجلها نزل القرآن في نحو مائة جزء ونيف، وكتاب المصابيح في فضائل الصحابة مائة جزء، وفضائل التابعين لهم بإحسان مائة جزء وخمسون جزءاً، والناسخ والمنسوخ ثلاثون جزءاً، وكتاب الأخوة من المحدثين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين أربعون جزءاً، وأعلام النبوة ودلالات الرسالة عشرة أسفار... وغير ذلك من تواليفه»[20]. وكانت مكتبة ابن المطرف قد صممت في الأصل كبناء مكتبة صممه مهندسون مهرة بحيث يستطيع الفرد من زاوية معينة أن يشاهد كل الرفوف، والقاعة الأنيقة، والجدران والسطح وشرفات المكتبة وسجادها والوسائد الغالية، وكلها باللون الأخضر الذي يرمز إلى عراقة وشرف أسرة أبي المطرف، حيث أنه ينتسب إلى أحد الأسر القرطبية الواسعة الثراء[21].

---

(18) ابن بشكوال. كتاب الصلة. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966 جـ1، ص310.
(19) نفس المصدر.
(20) نفس المصدر، ص 311-312.
(21) خوليان ريبيرا، ص 196.

ومن بين أهل قرطبة الذين اشتهروا بجمعهم للكتب وامتلاكهم لمكتبات خاصة بهم جعفر بن محمد بن مكي بن أبي طالب بن محمد بن مختار القيسي، اللغوي، الذي «كان عالماً بالآداب واللغات ذاكراً لها، متقناً لما قيده منها، ضابطاً لجميعها، عني بذلك العناية التامة، وجمع من ذلك كتباً كثيرة»[22].

وكان من بينهم أيضاً سلمة بن سعيد بن سلمة بن حفص بن عمر بن يحيى بن سعيد بن مطرف بن برد الأنصاري الذي سافر من «أستجه» إلى المشرق الإسلامي واستقر بمصر فترة طويلة من الزمن كان يجمع خلالها كتب العلم من كل مكان ثم أنه رجع بكل ما جمعه من كتب إلى الأندلس. وكانت الكتب التي جمعها في كل فن من العلم دفع في شرائها أموالاً كثيرة حملها معه إلى المشرق عندما ترك الأندلس في بداية الأمر[23]. وكذلك كان من بينهم عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الجهني الطليطلي، ويكنى أبا محمد، وكان «شيخاً فاضلاً رفيع القدر، عالي الذكر، عالماً بالأدب واللغة ومعاني الأشعار، ذاكراً للأخبار والحكايات.... أضبط لكتبه وروايته منه،... وكان لا يعير كتاباً إلا لمن يتيقن أمانته ودينه»[24].

ومحمد بن أحمد بن عون بن محمد بن عون النعافري، ويكنى أبا عبد الله، الذي كان فقيها فاضلاً، تقياً ورعاً، وعفيفاً متواضعاً، مواظباً على الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة، معتنياً بالعلم ومشهوراً بالمعرفة والفهم، يملك الكثير من الكتب، يجمعها ويبحث عنها[25]. وقاسم بن سعدان بن عبد الوارث بن محمد بن بزيد، مولى الإمام عبد الرحمن بن معاوية، يكنى أبا محمد وكان ضابطاً لكتبه متقناً لروايته حسن الخط، جيد الضبط، عالماً بالحديث، بصيراً بالنحو والغريب والشعر، وكان يعتني بكتبه عناية فائقة حتى قيل إنه لا يوجد من يعتني بالكتب في الأندلس مثله، وكان ينسخ كتبه بنفسه ولم يزل في النسخ والمقابلة إلى أن مات ولم

(22) ابن بشكوال، ص 130.
(23) نفس المصدر ص 225.
(24) نفس المصدر، ص 245 -246.
(25) نفس المصدر، مج 2 ص 571.

يحدّث وحبس كتبه فكانت موقوفة عند محمد بن أبي دلم[26].

ولم يكن جمع الكتب أو امتلاك المكتبات الخاصة من نصيب الرجال وحدهم بل كان لنساء قرطبة أيضاً نصيب، فكان هناك العديد من النساء اللاتي اشتهرن بحب العلم والمعرفة واقتناء الكتب في كل فرع من فروع العلم والمعارف المختلفة. ويورد لنا ابن بشكوال أسماء عديدة من النساء العالمات مثل لبنى، كاتبة الخليفة الحكم بن عبد الرحمن التي كانت حاذقة بالكتابة، نحوية شاعرة، وعلى علم بالحساب، ولها مشاركة في العلم، وكانت حسنة الخط إلى درجة كبيرة. وكذلك عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم التي ذكرها ابن حيان بقوله لم يكن في بلاد الأندلس في زمانها من يعدلها علماً وأدباً وفهماً وشعراً. وفصاحة وعفة وطهارة، وكانت عائشة هذه حسنة الخط، تكتب المصاحف الشريفة والدفاتر، وكانت تجمع الكتب وتعتني بالعلم وتمتلك خزانة كتب كبيرة حسنة[27].

كذلك لم يكن حب جمع الكتب وامتلاك الخزانات مقصوراً على أصحاب المال والجاه فقط، وإنما وجدت هذه الهواية والرغبة في امتلاك الكتب حتى بين طبقات المجتمع الأندلسي الأكثر تواضعاً سواء في قرطبة أو بقية المدن والأماكن الأخرى، وهذه الطبقات المتوسطة الحال كانت ترضي حبها ورغبتها وشغفها بالكتب بالقدر الذي تسمح به ظروفها وإمكانياتها المادية والعملية، وكمثال على هذه الطبقات القرطبي «حزم المعلم» الذي كان يمضي وقته في تعليم الصبيان ويعيش من مهنته هذه حياة متواضعة ويساعده فيها ابنه محمد الذي يقوم على تعليم الفتيان وابنته التي تقوم على تعليم الفتيات، فكان يقوم بإدخار جزء قليل من دخله لشراء ما يستطيع شراءه من الكتب وكان «يشغل ساعات فراغه في نسخ الكتب التي يعيرها له أصدقاؤه. . . . وكان أدباء قرطبة يحسدونه أحياناً على دقة مخطوطاته، وروعة بعضها وندرة البعض الآخر، . . ويمكن أن تراه في ملابس جد متواضعة، ويتناول طعاماً أشد تواضعاً ولكن مكتبته تعكس بوضوح إلى أي حد يمكن أن يبلغ حب الكتب. . . حتى عند أصحاب الدخول المحدودة،

(26) ابن الفرضي. تاريخ علماء الأندلس. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966، ص 367.
(27) ابن بشكوال، جـ2، ص 692.

والأرزاق المتواضعة»[28].

وليس غريباً أن يهتم الجميع بجمع الكتب، لأن الكتاب في ذلك الوقت الوسيط الوحيد لنقل الثقافة وتداولها بين أفراد المجتمع بالإضافة إلى المحاورات والمناقشات والدروس التي كانت تعقد في المساجد وبعض الأماكن الأخرى كالمكتبات العامة والأسواق. وقد كانت قرطبة متميزة في الميدان الثقافي والعلمي بسبب كثرة أدبائها وعلمائها وشعرائها وكذلك بما كان يفد إليها من أدباء وعلماء وشعراء من المشرق الإسلامي، ونشطت حركة نشر الكتب المتمثلة في ما كان يقوم به الوراقون من نسخ للكتب المختلفة في كل فن وعلم، حتى غدت قرطبة أكبر وأشهر سوق للكتب في جزائر الأندلس وأوروبا وغيرها من البلدان. وكان يتردد على سوق كتبها كل من أراد الحصول على نسخة من كتاب معين أو مخطوط في حاجة إليه. ومن الروايات التي تدل على وجود سوق الكتب بقرطبة، قصة الحضرمي التي أوردها المقري التلمساني في كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» والتي يقول فيها الحضرمي انه أقام بقرطبة فترة من الزمن ولازم سوق كتبها مدة يترقب وقوع كتاب كان بحاجة ماسة إليه حتى عثر عليه، وكان الكتاب بخط جيد وتجليد ممتاز ففرح به الحضرمي فرحاً شديداً. ويتابع الحضرمي سرد قصته فيقول: «فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع إليَّ المنادي بالزيادة عليّ، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له: يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي... فأراني شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان له غرض في هذا الكتاب تركته لـه فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده... فقال لي: لست بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكنني أقمت خزانة كتب... وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه...»[29].

وقد فتح حب اقتناء وجمع الكتب في قرطبة وبقية المدن الأندلسية الباب

---

(28) خوليان ريبيرا، ص 202 -203.

(29) أحمد بن محمد المقري التلمساني ص 463.

أمام الكثيرين من الناس لكسب عيشهم من حرفة نسخ الكتب حيث أن العديد من أصحاب حوانيت الوراقة كانت تستخدم أعداداً كبيرة من النساخين مقابل أجر ورواتب ثابتة، وكذلك استخدمت المكتبات العامة والخاصة جمهرة من الفنيين والمهرة في حرفة النسخ، وقد اشتهر أهل الأندلس بالمهارة العالية والدقة الفائقة في فن نسخ الكتب وتجليدها حتى بلغت شهرتهم الآفاق في ذلك الزمن.

* * *

لقد نافست قرطبة، عاصمة الأندلس، بغداد والقاهرة وغيرها من المدن الإسلامية الأخرى التي اشتهرت بأنها مراكز للعلوم والفنون والثقافة فأصبحت «سوقاً نافقة (رائجة) للعلم وكعبة لرجال الأدب وجذبت مساجدها الأوروبيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية»[30].

وشهرة قرطبة كمركز ثقافي وعلمي جذب إليها من كل حدب وصوب «أكثر العلماء علماً، وأشد الطلاب ذكاء وحرصاً، جاؤوا من المقاطعات المختلفة، ومن خارج إسبانيا، وجاء معهم أمهر الناسخين، وأذكى الوراقين، وتعاون الجميع على أن يجعلوا من قرطبة سيدة التجارة والصناعة... وتلقت صناعة الكتاب وهواية الكتب وبدأت تزداد مع اتساع التعليم انتشاراً، دفعة جديدة قوية بإقامة مصانع الورق في طليطلة وشاطبة»[31].

والحقيقة التي لا يمكن إنكارها أو تجاهلها، انه لم يكن أهل قرطبة وحدهم عاشقين للكتب والمكتبات ولكن هذا كان حال الغالبية العظمى من العرب والمسلمين الذين اشتهروا بحب القراءة والشغف بها، وعشقوا الكتب، فعرفوا المكتبات واهتموا بإنشائها على اختلاف أنواعها عامة، وخاصة، ومدرسية، وفي المساجد، وعرفوا تجارة الكتب التي لم تكن معروفة بشكل منظم قبل الحضارة الإسلامية فكانت هدية أخرى قدمتها الحضارة العربية الإسلامية للبشرية، حيث

---

(30) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. ط 8. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1973 م، جـ 3، ص 337.

(31) خوليان ريبيرا، ص 189 -190.

«أن تاجر الكتب لم يعرف كوسيط لنقل الثقافة، ومتاجر الكتب كمراكز للثقافة في المدينة، قبل أن يفعل العرب ذلك»[32].

واقتناء الكتب في الحضارة العربية الإسلامية لم يكن مقتصراً على العلماء والأمراء والحكام فقط «بل كان هواية العرب على اختلاف طبقاتهم». فكل متعلم من أكبر كبراء الدولة إلى بائع الفحم، ومن قاضي المدينة إلى مؤذن المسجد، هو زبون دائم عند بائع الكتب. إن متوسط ما كانت تحتويه مكتبة خاصة لعربي في القرن العاشر، كان أكثر مما تحويه مكتبات الغرب (أوروبا) مجتمعة»[33].

وقد كتب خوليان ريبيرا واصفاً نهاية عصر ازدهار الثقافة والعلم ونهاية الكتب والمكتبات في مدينة قرطبة قائلاً:

«ولكن ذلك العصر (الذي) بلغ الغاية من البهاء والروعة، لم يستمر طويلاً، وسادت الحرب الأهلية في قرطبة بعد أيام المنصور، وافتتح البربر، ومنهم الجانب الأكبر من القوات الملكية، عصراً من الفوضى والهمجية، فهم يسرقون القصور، ويحرقون المكتبات، ورحلت الأسر القرطبية الغنية إلى المحافظات، وهرب الطلاب والأساتذة من العاصمة، وأنشأوا مراكز تربوية جديدة، ونشروا هواية حب الكتب في المدن التي رحلوا إليها، والتي أصبحت فيما بعد عواصم لدول ملوك الطوائف، وانفصلت عن طاعة السلطان المركزية المتردية، وظلت في قرطبة العاصمة تتجادل وتتهاوى تدريجياً، إلى أن سقطت نهائياً. ورغم ذلك واصلت عاصمة إسبانيا الإسلامية دورها، مركزاً رئيسياً للحياة الأدبية والعلمية في تلك الأيام، وازدهرت فيها صناعة الكتاب وكثر عشاقه....»[34].

ولقد صدق أبو البقاء الرندي في مرثيته التي رثا فيها الأندلس، حين ذكر قرطبة بقوله:

وأين قـرطبـة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها لـه شأن

---

(32) زيغريد هونكه. شمس العرب تسطع على الغرب. ط 2. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي. بيروت: المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، 1969 م، ص 390.

(33) نفس المصدر، ص 388.

(34) خوليان ريبيرا، ص 215.